الفلسفة واليومي	**زمن اليومي: كَايْرُوس**
حصة 6: درسان	د. محمد شوقي الزين

قسَّم القدماء الزمن إلى ثلاثة أنواع: **«الزمن الأزلي أو الخالد»** (aiôn) وهو الزمن الميتافيزيقي والطويل من حيث الآماد؛ **«الزمن الكرونولوجي»** (chronos) وهو زمن الحساب والتوقيت وتقسيم المواسم والفصول إلى ساعات وأيام وشهور وسنوات؛ **«الزمن الكايري»** (kairos) وهو زمن اللحظة المناسبة والعابرة التي تقتضي الاستراق. ينخرط اليومي في هذا الزمن الكايري القائم على لحظات عابرة يتوجَّب اغتنامها وكل النتائج والعوائد المترتّبة عن ذلك.

عندما نتأمَّل في اليومي، نجد أنه ينتمي إلى سياق زمني يتميَّز بالمرونة والعفوية. وإن كان الفعل البشري يخضع إلى الزمن الكرونولوجي بوجود متوالية من الأفعال المبدئية (actes) التي بترابُطها المنسجم تُشكِّل الفعل في وحدته الأدائية؛ وإن كان هذا الفعل يتمُّ بالتسلسل الزمني للوحدات الفعلية، فهو يُنجَز في إطار مجموعة من المصادفات التي تتطلب الشروط الذهنية في اغتنام الفرص المواتية للتوصُّل بالهدف. يُسمَّى هذا النوع من الزمن الذي يقتضي الانتباه لمصادفات الحياة وتركيز الذهن في اغتنام الفرص بالزمن الكايري أو «كَايْرُوس»، زمن قصير في مبناه، جزيل في مغزاه، يتطلب المهارة والحنكة في السعي والإنجاز.

1

يرتبط الزمن الكايري بالصنائع والمهارات اليدوية والتقنية، وينتشر في السياقات التي تستدعي النباهة والسرعة في التناول. ما هذا الزمن الذي نسميه إذاً «كايروس» (kairos)؟ ماهي بنيته وطبيعته؟ ما هو نمط اشتغاله؟ كيف ينخرط في تنظيم الحياة اليومية، بتوفير العوامل الملائمة في السعي والتحقيق؟ ينخرط الفعل البشري في سؤال «لماذا؟» كما بلورته إليزابيت أنسكومب[1]، سؤال يكشف عن قصدية الفعل، أو الفعل بوصفه قصداً يبتغي غاية معيَّنة؛ ويُكمِّله سؤال آخر هو سؤال «كيف؟»، يكشف عن ملابسات إنجاز

[1] E. M. Anscombe, *L'intention*, tr. Vincent Descombes, Mathieu Maurice et Cyrille Michon, Paris, Gallimard, 2002.

الفعل، أي الطريقة التي يتمُّ فيها حسب استدلال عملي خاص، قائم على المشورة والخيار ثم القرار والإنجاز. يُوفِّر هذا السؤال حيثيات وصف الفعل في سياق حدوثه أو إنجازه في الحياة اليومية.

تلجأ أنسكومب إلى فكرة القصد التي تأخذها في حرفيتها وهي «التَّسديد»، مثل تسديد الضَّربة أو الرَّمية. تأتي هذه الفكرة على الخلاف من الفينومينولوجيا، لأن القصد هنا معناه تركيز الانتباه في بؤرة لتسديد فعل معيَّن. القصد والفعل هما تقريباً شيء واحد عند أنسكومب. والعلة في ذلك أن إدراك القصد يمرُّ عبر معرفة الفعل: عندما يتناول الشخص كأساً، فإن هذا الفعل هو دلالة على العطش، وأن الشخص يقصد الكأس لشرب الماء. لكن، في بعض الأحيان لا ينطبق القصد مع فعل معيَّن، كأن يأخذ الشخص الكأس ويرى ما بداخله. فالفعل هنا لقصد آخر غير الشرب.

إذا كانت القصدية في الفلسفة التحليلية تختلف في بنيتها عن الفينومينولوجيا من حيث الغاية العملية التي تبتغيها أي الفعل أو أداء شيء معيَّن، فإنها تقترب منها في البُعد الوصفي (description)، حيث أن: 1- وصف أفعال الأشخاص هي وصف مقاصدهم، أي الغاية من الفعل. ولا تنطبق القصديات مع الأفعال في بعض الأحيان، من جراء الالتباس أو التعديل من مسار الفعل الذي يتطلَّب وصفاً أو تفسيراً أو تعليلاً آخر؛ 2- كذلك يختلف القصد من حيث حيِّز التنفيذ: عندما يضع شخص كتاباً على الطاولة، فبنية وضعه على الطاولة ولا يحدِّد مكاناً معيَّناً من هذه الطاولة. ليس للقصد تحديداً خاصاً؛ 3- بين القصد والإدراك هناك تفاوُت: مثلاً، أن نرى ظلاً في الغابة ونعتقد بأنه ظل غزال، لكن هو ظل إنسان؛ أو بين القصد والفعل هناك فارق: يقول السائق بأنه سيدور على اليمين ولكن يدور على اليسار سهواً؛ يسمى هذا في التحليل القصدي لدى فلاسفة التحليل: «الخطأ العملي» (erreur pratique) بالنسبة للأفعال أو «الوهم البصري» (illusion d'optique) بالنسبة للإدراكات كالالتباس في الظِلال.

تقول فاليري أكوتريه في كتابها عن إليزابيت أنسكومب: «تعبِّر القصدية عن خصائص مفهوم القصد وهي: الضبابية في الدلالة، الغموض والالتباس، إمكانية عدم التطابق بين الهدف والموضوع. هذه إذاً هي الميزات الخاصة بالموضوعات القصدية فيما يتعلق بأفعال الإحساس (verbes de sensation)»[2]. ما ينطلي على القصد ينطلي كذلك على اليومي، مرتع الأفعال القصدية، الذي يتميَّز بالغموض والالتباس، كما بيَّنَّا منذ الدروس الأولى. أفعال الإحساس هي ما يدركه الحس مثل الرؤية في الخلط بين الظِلال أو الحركة والإشارة بابتغاء اليمين والدوران على اليسار.

إن التَّفاوُت بين الهدف المقصود والموضوع الذي يُدرَك، هو الذي يشكِّل النموذج المحوري لما نسميه «القصدية»، لأن هذه القصدية تميِّز بين الموضوع القصدي من استحداث الذهن (l'esprit) وبين الموضوع الواقعي المتواجد خارج الذات (le réel). تبقى المشكلة في معرفة طبيعة هذا الموضوع: 1- إما هو موضوع واقعي يتم إدراكه ووصفه تبعاً للوضعية التي يكون عليها ككل الأشياء في الحياة اليومية؛ 2- وإما هو موضوع خيالي يتم وصفه تبعاً لوضعية معينة كالأمنيات والأحلام. لا تعني القصدية طبيعة الموضوع المدرَك، إن كان واقعياً أم ذهنياً، ولكن طريقة وصف هذا الموضوع، بمعنى الاستعمال الدقيق والحصري لكلمات أو تعبيرات بشأن الموضوع في سياق الإدراك ذاته. وهذا ما خلُصت إليه فلسفة فتغنشتاين اللغوية، بمعنى الاستعمال السَّديد للكلمات في التَّعبير عن أشياء وأحوال اليومي.

2

تخصُّ القصدية وقائع ذهنية بشأن موضوعات محدَّدة تتعلَّق بها أو تحيل إليها، بحيث تجيب عن مجموعة من الأسئلة الوجيهة من قبيل: إلى ماذا تحيل هذه الفكرة؟ ما موضوع هذا التمثُّل؟ على ماذا يقع الانتباه؟ بما أن القصدية تستهدف موضوعاً، خارجياً أو مفترضاً، فإن التعبير عن هذا الموضوع يتمُّ عبر لغة وصفية قادرة على تحديد طبيعة هذا

[2] Valérie Aucouturier, *Elizabeth Anscombe : l'esprit en pratique*, Paris, CNRS éditions, 2012, p. 53.

الموضوع وأبعاده الفيزيائية أو الذهنية. ما يمكن للقصدية أن تُبيِّنه بخصوص الكايروس؟ لفهم ذلك، نضيف سؤالاً ثالثاً على سؤال كيف ولماذا، وهو سؤال «متى؟»، بمعنى: في أيِّ ظرفٍ يتمُّ إنجاز الفعل، وخصوصاً في أيِّ ظرفٍ ملائم وسانح يُحقق أهدافه؟ من شأن القصدية أن تُبيِّن طريقة حدس أشياء اليومي وطريقة وصف هذا الحدس المباشر في لغة يومية مشتركة. وأكثر من ذلك، تُبيِّن القصدية البُعد الملتبس لليومي من جرَّاء تعديل الأفعال، أي إجراءُ تغييرٍ في القصد حسب الحاجة أو وطأة الحال.

يُعبِّر الكايْروس عن طفرات الفعل البشري، ومن ثمَّ تحوُّلات القصد، في طريقة حدس الأشياء وطريقة التعبير عنها في اللغة العادية. يطرح سؤال «متى؟» الظرف والحيِّز المناسبين في إنجاز الفعل: الظرف المناسب في المكان المناسب. أو بتعبير آخر، عندما يتواقت الفعل مع الزمن الملائم في تحقيق الهدف والتوصُّل بالغاية. كانت هذه التسمية الخاصة للزمن لدى الإغريق القدامى[3]. لمعرفة بنية الكايروس وكيف يتحقَّق في الفعل، أو بالأحرى كيف يتأقلم معه الفعل، من الأجدى أن نرى الذاكرة العريقة أو أركيولوجيا هذا الكايروس في مسقط رأسه عند اليونان، وفي أي مجالات يتمُّ ويتحقَّق.

يمكن استحضار هنا ثلاثة أقوال تُبرز أهمية الكايروس في الفعل البشري. القول الأول لسوفوكليس (Sophocle): **«الكايروس، رفيق الدرب في كل مسعى بشري»**؛ القول الثاني لبوليبيوس (Polybe): **«يحكم الكايروس الأعمال البشرية كلها»**؛ والقول الثالث لكاليستراتوس (Callistrate): **«لا يوجد من صانع للجمال مثل الكايروس»**[4]. وله أسماء متعددة: "الفرصة الملائمة" (occasion opportune)، "الزمن السانح" (temps propice)، "الميزان السديد" (juste mesure)، إلخ. يتعلق الأمر باقتناص الفرصة المناسبة في الزمن الملائم وفي الوضعية السانحة. إنه "زمن" العثور المفاجئ وثقف اللحظات السعيدة. ينطبق "الكايروس" على الوضعيات العملية، لذا ربطه اليونان القدامى

[3] Pierre Aubenque, *La prudence chez Aristote*, Paris, PUF, 1963, coll. « Quadrige », 1997, p. 97
[4] In : Monique Trédé, *Kairos : l'à-propos et l'occasion (le mot et la notion d'Homère à la fin du IV^e siècle avant J-C)*, Paris, Klincksienck, 1992, p. 15

بالصنائع مثل النسج أو الحياكة والملاحة والطب. ارتبط قبل كل شيء بالطب عند أبوقراط، لما يتطلب الطب من حكمة ونباهة في استقراء أعراض الأمراض واختيار أوزان الجرعات وأزمنة الإمداد، ودراسة الحالات الخاصة بالأفراد المعتلين؛ بمعنى إنجاز قواعد عامة في التطبيب على حالات خاصة تتعلق بالمزاج والأخلاط.

طبيعة "الكايروس" أنه قصير المدة، عابر، فار، سائل، سريع، إلخ. ينبغي اقتناصه في الظرف الملائم الذي قبله لا يوجد شيء وبعده تم كل شيء استهلاكه. "المصادفة" أو المطابقة بين الفعل والزمن الملائم هو الذي يتَّخذ هنا اسم "كايروس"[5]. يُحدده موتسوبولوس على أنه «اختزال الأدنى (minimal) في الأمثل (optimal)»[6]. أي من وسائل بسيطة نحقق أهدافاً جزيلة. يتميَّز "الكايروس" بالاستمرارية والقطيعة، لأنه زمن يجري باستمرار، ويُحدث، بين الحين والآخر، وثبة أو طفرة، هي الظرف الملائم الواجب اقتناصه على الفور، نظراً لسرعته الفائقة وزواله الفوري. فهو يُحقق انفصالاً عابراً في سياق السيولة الزمنية الاعتيادية.

كذلك، في سياق مصادفات (contingences) ووضعيات حرجة، يُحقق الكايروس الخروج المنتصر من هذه الوضعيات. وهنا تكمن المفارقة في الكايروس: إنه الأزمة (crisis) والخروج من الأزمة بأقل الأضرار الممكنة. هذا على صعيد الطبيعة الميتافيزيقية. لكن، إذا تقيَّدنا بالمعطيات الموضوعية، فإن مجال اعتمال الكايروس واشتغاله، هو مجموع النشاطات البشرية، كما توضحه الأقوال لمشاهير عدة، أشرنا إليها من قبل. النشاطات البشرية أو التقنيات بالمعنى اليوناني العريق (technai)، هي مرتع الكايروس أو الحقل الذي يجوبه، ويقتضي المهارة في الأداء والدهاء في التناوُل.

3

[5] Pierre Aubenque, *La prudence chez Aristote*, Paris, PUF, 1963, p. 97
[6] E. Moutsopoulos, *Variations sur le thème du Kairos*, Paris, Vrin, 2002, p. 78

من شأن الكايروس أن يُعلّم الطريقة التي نحسب بها الوضعيات، أن نفكّر مليًّا في المصادفات، أن نتأهَّب للعوارض الطارئة، أن نقيس الأمور بمقياس الاعتدال. من هنا ارتباط الكايروس بالمقياس أو ميترون (métron)، بمعنى الحصص الموزونة الواجب مراعاتها في كل مجال بشري: الطب، الفلاحة، الملاحة، إلخ. ارتباط الكايروس بالنشاطات البشرية، معناه أنه وثيق الصلة بالتجربة والحكم والتمييز والميزان والاعتدال في الأمور، وهي وظائف عقلية وحُكمية، ضرورية لكل صناعة وإبداع في وضعيات العمل. في وضعيات العمل ثمة مصادفات، وأحياناً أزمات ومشكلات، تقتضي كلها نباهة واحتراساً، وتتطلب ميزاناً معتدلاً وعادلاً. يتدخَّل الكايروس هنا، بوصفه ميزان الاعتدال، في درء الإفراط والتفريط، في إيجاد نقطة التوازن، بما يعود بالفائدة على الفاعل الاجتماعي.

يتبدَّى الكايروس بوصفه زمن **الحسم** (décision)، خصوصاً في استدلال عملي قصير المدى من حيث المشورة والخيار والقرار، لأنه يتمُّ في سياق طوارئ أو نوازل تستدعي "الحسم" في ظرف وجيز: أن نقول شيئاً أو أن نفعل شيئاً في الوقت الملائم، لإنقاذ وضعية حرجة، أو حل مشكلة عالقة: «الكايروس، نقطة حرجة وحاسمة، يضمن فعالية الكلمة والفعل معاً»[7]. فهو في الكلمة (الشاعر والخطيب) العبارة الهادفة، دون تكلُّف أو إطناب؛ وفي الفعل (الصانع والمخترع) العملية الناجعة، دون إهدار في الطاقات أو في المواد. الكايروس، عبارة عن فلسفة اقتصادية بامتياز، اقتصاد بالمعنى الحرفي للكلمة، أي بأدنى الوسائل ننجز أمثل الغايات: بأدنى عبارة نُحقق التأثير المرجو على السامع، بأدنى فعل نغيّر الوضعيات والسياقات.

إذا قُمنا بحصر الكايروس بالمبحث الذي يهمنا وهو الفعل، وبشكل أخص العمل؛ فهو يُقدّم خدمات معرفية جليلة، بحكم ارتباطه الوثيق بالصنائع التي تقتضي المهارة في الأداء، واللباقة في الإنجاز. توقف الإغريق القدامى على هذه الخاصية الجوهرية للكايروس في الأعمال البشرية مثل الملاحة والفلاحة والطباخة والعديد من الفنون والتقنيات. كل

[7] M. Trédé, *Le Kairos, op. cit.*, p. 44

وضعية في العمل (situation de travail) تتطلب قدراً من الكايروس، تستفيد من حنكته وقدرته على مدّ العامل بالمهارة والجودة. إذا كان الكايروس القديم انحصر في صنائع محدَّدة كالطب مثلاً الذي يراعي أوقات تقديم الجرعات الشافية أو الظروف التي ينبغي إجراء فيها العمليات، فإن الفنون الأخرى التي تطوَّرت في الزمن، وتكاثرت وتعقَّدت، مثلما هو الحال اليوم، فإن الكايروس أمسى مهماً وفاعلاً ونافذاً في وضعيات كثيرة من العمل البشري.

كل عمل يتطلب موازين، ويقوم الكايروس على هذه الموازين بأن يُوفّر الحصص المثلى، والمعايير المعتدلة، والمقاييس الملائمة، ليكون العمل في حالة من التوازن الجسدي والنفسي، بعيداً عن الإفراط في الكميات، والتفريط في النوعيات. وفوق كل هذا وذاك، فإن نجاعة الفعل ونجاحه هما التجسيد الأساس للكايروس.